تل طوقان
مدينة من العصر السوري القديم

فرانشيسكا بافي غواردداتا
تعريب : هيثم حسن

كان الهدف من الأسبار المنجزة من قبل البعثة الأثرية الايطالية في موقع طوقان والتي تحققت بشكل متقطع خلال أعوام ١٩٧٨ – ١٩٨١ – ١٩٨٦ هو لدراسة حالة الطبقات السكنية في وسط التل والتي تعود لفترة البرونز الوسيط ، تبلغ مساحة التل الحالية ما يقارب الثلاثين هكتارا ويضم في ثناياه طبقات من عصر البرونز الوسيط التي توضعت فوق طبقات من عصر البرونز القديم (IV B) والشواهد المتعلقة بمرحلة الألف الثالث ق.م متعددة وهي تلتقي بشكل لا ريب فيه على السطح الشمالي والشمالي الشرقي من التل داخل وخارج باب المدينة A . هذه الشواهد وجدت خارج التحصينات الضخمة للمدينة ، أي خارج جدران السور الذي يعود للألف الثاني ق.م. وهذا يدل على انه أثناء فترة البرونز القديم كانت المدينة على الأقل ممتدة الى الشمال فيما وراء التحصينات الدفاعية التي تعود لفترة البرونز الوسيط . والمدينة في الألف الثالث ق. م. كانت تحتل كل مساحة التل الحالية ، والاكتشافات التي تمت في مدينة الألف الثالث ق.م ، وبعض الأسبار التي تحققت في الاكربول أثبتت وجود طبقة من عصر الحديد II , III (الثاني ، الثالث) في هذه القطاعات . وظهرت سويات من عصر احدث في قمة التل حيث عثرنا على كسر فخارية هلنستية بالقرب من الجدران الداخلية وفي الجزء العلوي في الجنوب وفي قطاع الباب الجنوبي الشرقي أيضا حيث ظهرت عدة وثائق او دلائل أثرية تعود الى العصر الفارسي والروماني المتاخر . كانت مدينة عصر البرونز الوسيط من الألف الثاني ق.م. محاطة بجدار دفاعي من اللبن فصل بثلاثة ابواب ، ومن هذه الابواب تم تنقيب الباب الشمالي الشرقي (شكل ٢) والباب الجنوبي الشرقي (شكل ٣) اما فيما يتعلق بالباب الثالث الذي يخترق القطاع الجنوبي الغربي من السور فقد بقي كشاهد جلي وواضح على القطع الحجرية الكلسية الكبيرة التي تتراكم على السطح ، اما البابان المحفوران حتى الآن فإنهما متشابهان كثيرا سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية الصنعة المعمارية او الحجوم ، والاثنان بشكل كامل مبنيان في الواقع وفق نموذج معروف في اكثر من مكان أثناء فترة البرونز الوسيط في فلسطين وسورية الشمالية والمثال الأقرب هو الباب الجنوبي الغربي في سور ايبلا في العصر السوري القديم . ففي الباب A والباب F ثلاثة ازواج من العضادات الدفاعية / مساند / تحدد غرفتين داخليتين ، فالغرفتان في الباب A أبعادهما ٧×٢م اما الغرفتان في الباب F فأبعادهما ٨×٩٠ر١م هذا وإن مجموعة الممرات تنتظم وفق محور يقارب طوله ١٤ م في الباب A و ٥٠ر١٤ م في الباب F والبابان يتميزان بنظام خاص للاغلاق وذلك بواسطة لوحة بازلتية جيدة الصنعة فكان الاغلاق يعمل بشكل مؤكد من داخل الغرفة بحيث انه حالما يتم اغلاق الابواب فإنهما يصبحان ضروريان كبديل عن مجموعة من الجنود والحراس .

يتألف الباب A اليوم من مجموعة معمارية منفردة مكساة بقطع حجرية كلسية ضخمة حتى ارتفاع

٤ م وهي توضح العمارة النموذجية للتحصينات في العصر السوري القديم والتي عرفناها من قبل في الباب الجنوبي الغربي المعاصر في ايبلا والذي هو أيضا مغطى بحجارة كلسية ضخمة ويحتمل انه كان (بوابة ماء) كانت تسمح بوصول الماء الى وسط المدينة مباشرة وذلك من مستنقع المتخ الذي ينتهي فيه نهر قويق .

ومن هذا النوع يجب ان يكون أيضا الباب الغربي (لم يتم تنقيبه بعد) الذي كان يحاذي الجزء المنبسط من المدينة أو قريبا من سور الاكربول (وسط المدينة). تشكل هذه الانشاءات جملة معمارية كما هو واضح في الباب A وهي مشيدة من اللبن في قلبها مما يساعد على الالتحام بالسور . وعلى قمة التل فإن الأسبار المنجزة في المنطقة الشمالية أظهرت نظاما دفاعيا مثيرا للاهتمام .

اظهرت الاكتشافات الاثرية في هذا القطاع منذ عام ١٩٨٦ سلسلة من الأبراج الدائرية المتوضعة بشكل منتظم فيما بينها وهي مبنية من اللبن . ان الجدران التي تربط بينها والقطع الفخارية المكتشفة في السور الدفاعي هي من عصر البرونز الوسيط II (مع قطع نادرة جدا من البرونز الوسيط I) وهناك ثلاثة منشآت كبيرة دائرية متباعدة فيما بينها بمسافة ١٦ أو ١٤٫٥٠ م ومكونة من جدران عريضة تبلغ سماكتها حوالي ٢٫٨٠ م وقطر كل منها ٩٫٤٠ م . جهة الابراج من الناحية الداخلية للمدينة محفوظة بشكل افضل من بقية الاجزاء غير ان التآكل في السفح الخارجي للتل منع حفظ الجزء الخارجي من هذه الانشاءات المعمارية . ومواد الانشاء هي من اللبن ذو اللون الرمادي الصافي أو الاحمر الضارب للصفرة وتبلغ ابعاده ٤٠ × ٤٠ سم اما الجدران فإنها متوضعة على الاسوار من دون اي أسس من الحجارة ويبلغ عرضها ٢ م وترتبط مع ابراج مبنية من المواد نفسها . هذا النوع من التحصينات كان مرتفعا عن السور الغربي وهي منتشرة بين البابين الشمالي الغربي (الباب A والباب الغربي الذي لم ينقب بعد . وكما ذكرنا فإن هذا الباب الاخير كان قريبا من مركز المدينة المرتفعة وكتل جزءا هاما منه .

تركز موسم عام ١٩٨١ في هذا الجزء من التل الذي يبلغ التل فيه ارتفاعه الأعظمي ، ويحتوي حتما على المباني الاكثر اهمية في المدينة من العصر السوري القديم ولقد جهزت المدينة بسور دفاعي في الشمال من أجل حمايتها وذلك لأن سفح التل هنا يعتبر منعزلا اكثر من الجهة الجنوبية . اذن كان لمركز المدينة المرتفع نظام دفاعي واضح لكنه يختلف قليلا عن ذلك الذي للمدينة ككل . فالاسبار وضحت بالفعل التحصينات التي برزت في الطبقة النهائية للمدينة من عصر البرونز الوسيط II والتي ظلت مستخدمة حتى دمار مركز المدينة في العصر السوري القديم ولقد اكدت على التحصينات المبنية بطريقة خاصة فضلا عن الاسبار التي تمت حتى الآن . بما أن الطبقة السطحية تنخفض كثيرا فقد فكرنا بوجود باب الوصول الى مركز المدينة فبدأنا الحفر فيه في عام ١٩٨١ . ولكن لسوء الحظ لم نجد أي أثر للممر ، فالمواد المستخدمة في البناء كانت قد انتزعت في عصر لاحق ثم أعيد استخدامها من أجل انشاءات معمارية أخرى . أما الباقي من التحصينات فقد خضع لعدة عوامل مختلفة وهو قائم حاليا حتى ارتفاع أدنى يبلغ ٥٠ سم واعظمي يبلغ ٥٫٤٠ م وهذا ما سمح بإعطائنا فهما جيدا لتقنية بناءه .

يتألف العنصر الاساسي للسور من جدار من اللبن يبلغ عرضه ٥٫٤٠ م ويتربع على قاعدة نظامية من حجارة ذات ابعاد مختلفة وبناؤه يرتفع في وسط طبقة البرونز الوسيط II وكان يشغل المنطقة المحصورة بين الباب (فيما بعد اختفى بشكل كامل) وبوابة الماء التي الى الجنوب الشرقي والتي كانت تربط مباشرة الخارج بمركز المدينة المرتفع ، وعلى الجزء الموجود في حالة جيدة من الحفظ يرتفع جدار قوي بشكل كامل ويدعمه سور من تراب مدكوك مشدود الى قاعدة الجدار المصنوع من اللبن .

تغطي كتلة التراب مساحة عرضها ١٩٫٥٠ م متوضعة في طبقات عديدة من التراب المتراكم وربما تجمعت هذه الطبقات الترابية من فترات مختلفة أو لأسباب تقنية (شكل ٥) ، وهكذا فإن مجموعة

التحصينات مؤلفة من ابراج تتراوح ابعادها بين ٥٠ر٧م عرضا و ٨٥ر٥ م بروزا للخارج .

كان قد تم كشف احد هذه الابراج بشكل كامل تقريبا وكان يحتوي على درج مؤلف من ثلاثة مصاطب وكل مصطبة من هذه المصاطب كان مرصوفا بثلاثة صفوف مضاعفة من اللبن ، وعلى مسافة ١٧ م الى الشرق من البرج السابق وجدنا آثار برج ثان ، وبناء هذه الابراج لم يكن معاصرا لجدار اللبن وانما تم إكمالها مع النظام الدفاعي الاول وقد بنيت مباشرة على السور من دون اي أساس . اما في داخل مركز المدينة المرتفع وفي المنطقة المنقبة وجدنا في العمق سوية من عصر الحديد II ممتدة حتى الطبقة الهلنستية في القطاع الجنوبي غير أن كل هذه المنشآت تمنع تحديد المباني الدينية ومبان البلاط الملكي التي يجب ان تكون موجودة في مركز المدينة المرتفع .

مقابل ذلك فإن الاكتشافات الاثرية المنجزة في المدينة السهلية في عام ١٩٨٨ اظهرت عمارة من البرونز الوسيط II ولم تكن فوقها طبقات أحدث عهدا ، فالاهمية كانت متجمعة في مركز المنطقة الغربية من المدينة المنخفضة او في السطح حيث لم نعثر الا على كسر فخارية من البرونز الوسيط II وهذا ما يعزز الامل بوجود مكتشفات أثرية معاصرة للتحصينات من دون توضعات لاحقة .

في الواقع ، على بعد بضع سنتمرات من السطح ظهرت سابقا جدران لبناءين مختلفين جدا فيما بينهما بالابعاد وبالعمارة . ويبدو من الحفرية H المشغولة بجزئها الشرقي بجدران يصل عرضها حتى ٤٠ر١ م ومؤلفة – بما يمكن مشاهدته اليوم – من غرفة مربعة كبيرة طول ضلعها ٧٠ر٦ م محاطة بثلاثة قاعات أصغر ذات مقاييس نظامية تقريبا ظهرت في المنطقة الغربية .

ومع اتساع الحفريات ربما ستتضح وظيفة كل مبنى ، ولكننا حتى الآن نفترض انه لا يوجد مبنى ذو طابع منزلي ، والمبنى مر بمرحلتين من الاستعمال هما من عصر البرونز الوسيط II لكن خلال المرحلة الاقدم عهدا احتفظت الغرفة المركزية الكبيرة بجزء من اللبن حتى ارتفاع ١٠ سم متوضع بالقرب من جدار المبنى الشمالي ومطمورة دائرية قطرها ٧٠ سم ويتفق قاعها تماما مع ارضية الغرفة (L364) . وفي المبنى فإن المرحلة الاولى المستخدمة توبعت بأخرى ولذلك لم تتعرض العمارة لاي تغيير ولم يحدث فيها الا اضافة ارضية جديدة للغرف ، بينما الجدران المبنية من قطع اللبن المربعة (طول ضلع الواحدة ٥ر٢ سم) تحتفظ بطلاء جيد وعندما هجر المبنى ، وذلك في فترة البرونز الوسيط II ، قريبا من جهته الغربية نشأت عدة بيوت بسيطة ذات جدران اقل عرضا (مؤلفة من صفين من اللبن) الى جانب غرف ذات وظائف واضحة مثلما تجلت في المنشآت التي ظهرت فيه من قبل مثل (فرن القاعة L333) .

ومن المحتمل انها معاصرة لهذه البيوت ، وفي المساحة المشغولة بالمبنى الرئيسي ثمة ثلاث حفر تقطع السويتين وتحتوي على كسر فخارية من نهاية عصر البرونز II تتناقص اقطار هذه الحفر كلما نزلنا حيث انها تتميز بأنها مكسوة بانصاف اللبن الرمادي الموصولة فيما بينها بملاط محمر . وثمة احتمال قوي بأن تل طوقان في عهد لاحق لتخريب مدينة العصر السوري القديم وسوره المحصن قد عرف السكن أثناء عصر البرونز الوسيط II النهائي ولم يكن اكثر من مركز مدني متواضع .

ومن خلال مواسم الاسبار السابقة في تل طوقان تم ازالة القواعد من أجل بحث أثري واسع ودائم يسمح بتوضيح العناصر الاكثر أهمية الظاهرة حتى اليوم المتعلقة بعمارة مدينة موجودة في الوسط والتي من أجل أسباب جغرافية كان لديها علاقات قوية مع ايبلا الكبيرة سواء أثناء عصر البرونز القديم أو البرونز الوسيط . فيما يتصل بالبرونز الوسيط فإن اكتشاف الابنية الكبيرة من قصور ، ومعابد ستوضح ما ينقصنا اليوم من اجل تفسير تاريخ التل ، بينما حفريات السويات الاثرية من البرونز القديم ستوضح الوجود الحقيقي للمدينة في الالف الثالث ق.م ، حيث لا تظهر حدودها متفقة مع تلك التوضعات من البرونز الوسيط. وبسبب ذلك كله ومقارنة مع تاريخ ايبلا فانه يبدو جليا انه في تل طوقان ان حياة المدينة تطورت في عصور مختلفة وانها تعرضت لتخريبات متتالية في عصر البرونز القديم IV B وفي نهاية البرونز الوسيط (II) النهائي . في هذين العصرين فإن الدلائل الاثرية من المركز الجنوبي الكبيرة فقيرة جدا وكأننا انتقلنا من ايبلا المهدمة الى موقع حيوي جديد لم يتعرض للغزو من قبل .